



48

# العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

## الفصل الثاني عشر

### ازدواجية اللغة، التهميش، التذبذب

#### 2. الهامشية (Marginality)

الهامشية تعني حالة الانتماء إلى ثقافتين من دون القدرة على تحديد الانتماء الكامل لأي منهما. ويصبح الفرد «هامشيا»، بعد ولادته ضمن ثقافة معينة بنهل منها على نحو معين. إذا تعرض إلى ثقافة أخرى. وجذبتة. وألفها على مستوى معين (بما في ذلك لغتها). وبذل جهده ليصبح حاملا ماهرا لها في سعي لم يتكلم بالنجاح في معظم الحالات. ويعاني الفرد الهامشي من عجزه عن الشعور بالألفة الكاملة مع أي من الثقافتين. ويستثنى من ذلك فئة استطاعت اكتساب أفق أوسع ومناعة ضد الشعور بالتفوق القومي.

ولا شك في أن الهامشية تبلغ حدها الأقصى في ثلاث دول عربية في شمال إفريقيا. وهي: المغرب والجزائر وتونس. كما توجد هذه الظاهرة إلى درجة مشابهة في لبنان، وبدرجة أقل في سوريا ومصر؛ وهذه الدول الست يقطنها حوالي ثلثا مجموع سكان العالم العربي. ويلاحظ أنها كلها كانت تحت السيطرة الفرنسية يوما ما باختلاف أمد هذه السيطرة من مجرد أعوام ثلاثة احتل فيها نابليون مصر عسكريا (1798-1801)، إلى 132 عاما من الحكم الاستعماري الفرنسي للجزائر (1830-1962). وخلال فترة سيطرة فرنسا اتبعت سياسة هدفت إلى ترغيب النخبة إلى أقصى حد ممكن باكتساب لغة فرنسا وطريقة العيش فيها. ومضت هذه السياسة بإصرار لا يلين حتى في الأماكن والأوقات التي لم يكونوا أصحاب السيطرة فيها عندما كانت الحكومات المحلية تمكنهم من متابعة ما دعوه «مهمة الحضارة». ولا شك في أنهم أدوا مهمتهم بشكل جيد. كما لا شك في أنهم، مع شعورهم بالتفوق القومي ثقافيا، لم يكونوا يتخيلون أبدا أن تؤدي جهودهم إلى تكوين فئة من العرب تقع على هامش الثقافتين الفرنسية والعربية كليهما وتحمل موقفا مترددا تجاههما.

## الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

إن ظاهرة هامشية العرب المتفرنسين، وبالأخص في الدول العربية شمال إفريقيا، شغلت جانبا من دراسات عدد من مختصي علم الاجتماع العرب والأوروبيين والأمريكيين مما جعل الفرد المتأثر بهذه الظاهرة موصوفا بشكل جيد. وتقضي القاعدة التي توصل إليها المختصون بأن هذا الفرد عادة ما يكون شابا ينحدر من عائلة تنتمي للطبقات العليا. أو فردا عاديا أظهر بعض القدرات في صباه مما مكنه من الحصول على تعليم ثانوي، وجامعي في بعض الحالات، وبسبب التعليم الثانوي اكتسب هذا الفرد معرفة جيدة باللغة الفرنسية، واعتاد، إلى حد ما، تقاليد الفرنسيين وطريقة عيشهم وأساليب تفكيرهم؛ وهنا يؤكد الكاتب الوطني المغربي علال الفاسي، والذي لم يتلق تعليما غربيا، على أن الريفيين الذين تعلموا على الطريقة الفرنسية «كانوا في العادة أكثر قدرة على تنظيم أفكارهم وأعمالهم». وأن «المنهج العلمي هو أحد أعظم الهدايا التي قدمتها فرنسا للمغرب». وقال مفكر وقائد وطني آخر، وهو محمد اليزيدي، أن الرجال الأربعة الذين قادوا الحركة الوطنية، إضافة إلى الفاسي، كانوا «ذوي التوجه الأكثر اتباعا للغرب من ناحية العادات المنظمة في العمل والفكر». وهنا يستنتج أحد الكتاب أن: «المدارس الفرنسية علمت المغربيين الطرائق الديكارتية في التفسير والتفكير المنظم، واكتسبوا فيها ذائقة النقد العقلي بالإضافة إلى وضوح التعبير الذي يتمتع به الفرنسيون»<sup>1</sup>.

ومع ذلك، فإن طرائق التفسير والتفكير المنظم وما شابه هي مسائل متعلقة بالنشاط الفكري ولا تقع ضمن الحيز الذي تعبر الهامشية عن نفسها فيه. ويكون الفرد الهامشي هامشيا لا بسبب عجزه عن اكتساب العمليات الفكرية التابعة للثقافة التي يبتغي الاندماج فيها، ولا بسبب عجزه عن تحرير نفسه من العمليات الفكرية التابعة للثقافة التي يبتغي الانفكاك عنها، وإنما بسبب عجزه عاطفيا عن تعريف انتمائه لإحدى الثقافتين. ولا بد أن هذا الجانب من الهامشية هو ما كان في ذهن الكاتب اللبناني جورج نقاش عندما كتب: «نحن الشرقيون ذوو الثقافة الغربية نعيش حالة دائمة من الانقسام الداخلي».

(1) جون هالستيد (John P. Halstead): أمة تولد من جديد... أصول وقيام الحركة الوطنية المغربية (1912-1944)، ص 135-141.

## الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

وتظهر بوادر الجانب العاطفي المحتم من الهامشية في أولى سنوات الدراسة حينما يتأثر الطفل العربي بتفوق الثقافة الغربية (الفرنسية في معظم الحالات) وضرورة تعلم لغة أوروبية (الفرنسية عادة، ثم بدأت الانكليزية تأخذ مكانها) باعتبارها أداة التواصل مع العالم المتقدم. وبعد إكمال المرحلة الثانوية، يذهب شباب النخبة في دول شمال افريقيا للدراسة في فرنسا حيث تقوى تلك الانطباعات وتتحول إلى قناعات راسخة. ونتيجة لذلك كانت سبعينات القرن العشرين، وحينها كانت اللغة والثقافة الفرنسية قد فقدت مكانتها المتفوقة في العالم، تشهد ميلا عند قيادات دول شمال افريقيا للاعتقاد بأن اللغة الفرنسية يجب أن تكون لغة التواصل مع العالم المثقف، وتبرير استبقائها في عدد من النشاطات والأجهزة في دولهم بحجة أنهم سينعزلون عن العالم من دون الفرنسية.

إن الهامشية العربية تتلقى دفعا كبيرا بفضل اللغة والثقافة الفرنسية؛ فقبل تحقيق الاستقلال، كان العديد من الهامشيين العرب في دول شمال افريقيا ولبنان وسوريا قد تماهوا كليا مع الثقافة الفرنسية وهم سعيديون بذلك، ومنهم من اندمج بشكل لا رجعة عنه حينما أمكنته الفرصة. لكن الظروف جعلت هذا التماهي مستحيلا من الناحية العملية، باستثناء حالات قليلة لمن تمكن من الاستقرار في فرنسا وتداخل مع النسيج الاجتماعي هناك. أما في معظم حالات الهامشيين فكانت لغة الفرنسيين وطريقة عيشهم أمرا يعيش في الذاكرة ويلفه الحنين، فعاشت قلوبهم في فرنسا وأبدانهم في دولهم، وتوجهوا بالكامل إلى إظهار ألفتهم لفرنسا ولغتها، ورجعوا بأن يكونوا ما لم ولن يكونوه: فرنسيين. ومع أنهم اكتسبوا ومارسوا كافة مظاهر الحضارة الفرنسية: في اللغة واللباس والطعام والعرف الاجتماعي، إلا أنهم لم يكتسبوا الشعور بأنهم اندمجوا في الحياة الفرنسية بشكل حقيقي. إن «المتطور» لم يصبح فرنسيا، وإنما عربيا «متطورا».

لقد أدى مصطلح «المتطور» (évolué)، والذي ابتدعه الفرنسيون للإشارة إلى كافة مستعمراتهم البعيدة عنهم، إلى أثر شديد التدمير على الاعتداد بالنفس عند شعوب «ما وراء البحر». فالمصطلح، بما فيه من تعصب قومي شديد، مرتبط بوجهة النظر التقليدية

## الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

المتبعة لنظرية التطور الثقافي التي ترى بأن الثقافة المعاصرة، والتي ينتمي إليها مؤيدو النظرية، تمثل أقصى ما يمكن أن تصل إليه الثقافة الإنسانية. وأن الثقافات الأخرى تنزل سلم التطور كلما زادت درجة اختلافها عنها. وسواء أكان ذلك مقبولا أم لا في صفوف الفرنسيين الذي قدموا يوما إلى شمال أفريقيا يملؤهم الاعتزاز بـ«المهمة الحضارية» (وهي مهمة تختلف تماما في النوع، وأشد في الجهد، مما نادى به الانكليز حينها من «واجب الرجل الأبيض»). فإن ذلك لا يدخل في مجال بحثنا. أما في ما يتعلق بالنخبة العربية فلم تكن على قدرة تمكنها من مقاومة القوة الكاملة للحضارة الفرنسية تعضدها رهبة الفاتحين، فتبنت أساليب الفرنسيين، ولهذا كان لزاما عليها أن تدفع ثمن تحولها إلى مكون «هجين ثقافيا».

إن العربي الهامشي مجبر بظروف هامشيته نفسها أن يتنقل يوميا جيئة وذهابا بين عالمين يعيش في هامشيتهما. ففي المنزل؛ حيث يتحدث بالعامية المحلية مع زوجته وأطفاله، يبدي العربي الهامشي موقفا متزعما ليس غريبا على جميع أوجه الحياة في المجتمع العربي التقليدي. وإن كان يتمتع بحس الفكاهة، فستجد نكاته عنيفة قاسية، وهذه صفات تميز الفكاهة عند العربي التقليدي، وهي التي دفعت الرئيس المصري جمال عبدالناصر ليقول لملك الأردن الحسين ذات مرة: «بما أن زيارتك سرية، ماذا سيحدث إن اعتقلناك؟»، وليقول له أيضا في حضور الزعيم الفلسطيني أحمد الشقيري: «يمكنك أن تأخذ الشقيري معك، وإن سبب لك أي مشكلة ارمه في أحد أبراجك وخلصني من المشكلة». وبينما تقابل مثل هذه النكات في المجتمع الغربي بصمت وألم لما فيها من قسوة وانعدام ذوق، كانت ردة الفعل عليها حينها أن انفجر القوم ضاحكين.

ينقسم المجتمع العربي التقليدي (كما رأينا) إلى قسمين: الرجال والنساء، وهما لا يلتقيان إلا ضمن الخصوصية التي يوفرها المنزل، وإذا ما حدث أن دخلت امرأة إلى حلقة نقاش بين رجال فسيتجاهلونها ولن يخطر على بال أحد منهم أن يجعلها تشارك في الحديث. وإذا التقى رجلان تلقيا تربية تقليدية فلن يسأل أحدهما الآخر عن حال زوجته، كما

## الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

إنه يعتبر من المهين له إظهار أية علامة لعاطفة أو تقدير تجاه زوجته خارج المنزل. بما في ذلك المشي أو الجلوس معها في العلن. وقد أورد غلوب باشا حادثة تشير إلى أنه حتى أكثر المراقبين غير العرب خبرة قد لا يستطيع معرفة مدى عمق حساسية العرب في هذه القضية. فقبل يوم من إجراء استعراض عسكري. قال غلوب لأحد مساعديه: «لن أحتاج إليك في الغد. يمكنك أن تعتبر الغد يوم عطلة وتأخذ زوجتك للاستعراض، إن أحببت ذلك». فشعر المساعد بالإهانة وأجاب: «هل تعتقد بأني من النوع الذي يجلس مع النساء»<sup>1</sup>.

ذلك الحوار جرى قبل سنوات عديدة باللغة العربية. وفي بيئة عربية اعتاد فيها حتى غلوب باشا على أن يلبس الكوفية كجزء من زيهِ العسكري. وفي بلد عربي في شمال أفريقيا حيث لفرنسا تأثيرها القوي. قد تحصل مثل هذه المحادثة. بالفرنسية طبعاً. وسيحاول المساعد شبه المتفرنس على أن يبهر قائده بأنه «متطور» بما يكفي لاتخاذ موقف تجاه زوجته يشابه الموقف الذي يتخذه القائد تجاه زوجته. ولوحظ أن الفرد الهامشي في دول شمال أفريقيا عندما يمتع نفسه بصحبة رفاقه المتطورين فإن شخصيته بأكملها تتغير. على الأقل مما يمكن معرفته من تصرفاته وطباعه الخارجية. في مثل هذا الموقف. كأن يكون أحدهم في مقهى فرنسي. عندما تدخل امرأة. وبدلاً من أن يتجاهلها الرجل. يبدي اهتمامه بها بطريقة متوقعة من شخص يعرف قواعد الاتيكيت الفرنسي. وتبدأ النكات تأخذ منحى مهذباً لا يكون الهدف منه إحراج الآخرين أو إقلاق راحتهم. وإنما إظهار «روحية» المرء وتهذيبه وقدرته على إلقاء النكات الخفيفة وتلقيها. من كل ما سبق نستنتج أن الفرد الهامشي يحاول في الواقع أن يتكيف مع صيغتين مختلفتين. ودائماً متناقضتين. للسلوك. وينتج عن هذا بقاءه غير واثق من بعض القيم الأساسية في حياته. أو أنه يصبح كما قال البرت حوراني:

أن تكون من بلاد الشام يعني أن تعيش في عالمين أو أكثر في نفس الوقت. ودون أن تنتمي إلى أي منها؛ وأن تكون قادراً على تلبس عدة أنماط خارجية تشير إلى الانتماء

(1) غلوب باشا (Sir John Bagot Glubb): غلوب باشا يحلل العقل العربي: ص38.

## الفصل الثاني عشر: ازدواجية اللغة، الهامشية، التذبذب

إلى دولة أو دين أو ثقافة دون انتماء حقيقي. فهنا لا مجال لأن يمتلك المرء معايير لقيم خاصة به، وليس عليه أن يبدع بل يقلد. وحتى التقليد يجب أن لا يكون بصورة صحيحة، لما يتطلبه ذلك من أصالة معينة. إن المطلوب هو أن تنتمي إلى (لا مجتمع) وأن تمتلك (لا شيء) يخصك، وهذا يكشف عن نفسه من خلال الضياع والتباهي والسخرية واليأس<sup>1</sup>.